على هامش معالم التقريب *

نور الله فى الآدميين

يلاحظ محمد عبد الله محمد، أنه فى فترات الركود - يختفى الفارق بين الإسلام كقوة روحية دافقة جاذبة، وبين الإسلام كمجموعة من الفروض والأوامر والنواهى .. وهذا الفارق فارق أساسى يشبه الفرق بين الوقود أو القوى المحركة للآلة، وبين أجهزة الحركة والضبط والتوجيه ..

فالنداءات الموجهة من النماذج الإسلامية الكاملة القليلة، لمخاطبة الكثرة وتحريك أعماقهم فى اتجاه الله ونحو الحق والخير - هى نداءات روحية لا تؤدى وظيفتها الأوامر والنواهى والمواعظ .. والدين الذى يكف عن إنتاج الأولياء والقديسين والأبطال الحقيقيين - يتدهور ويجدب . يحب أن يرى الناس دين الله ونوره فى آدميين، وهم حين يرونه فيهم لا يحتاجون بعد ذلك إلى استدلال وبرهان ووعظ .. فهذه النماذج من الأولياء والقديسين والأبطال - هى بشائر الخلافة فى أولاد آدم، وطلائع لمجىء سلالات آدمية أكثر حيوية وشجاعة ونبلا .. وهى بشائر وطلائع لنقلة عظيمة للنوع الإنسانى نحو البصيرة وصدق الولاء لله عز وجل .. لا بد أن تعبرها الكتلة والسواد كيما يصبح الإنسان جديرا بمعبوده ..

الناس فى غمرة أهوائها ومخاوفها وأطماعها، لا تعبد الله إلاَّ على المجاز الذى يسعه فضل الله تبارك وتعالى .. والدين الحى وسيلة إلهية

---

* العلم ٢٠١١/٣/٣١

نحشد أشواقنا وطاقاتنا وتقويها عسى أن تبلغ من الحرارة والعمق والاتساع درجة تنفتح لها مغاليق الأقدار وتنهل فيوض الرحمة وتقع الاستجابة فتنشق الأرحام عن ذرية نفسية لآدم يتوافر فيها النبل الذى ينفذ به آدم وعده المقطوع لله كما شاء الله .

إننا لم نعد نشعر بقيمة الفضيلة والأخلاق والصدق والإخلاص والحقيقة ـ إلا فى أوقات الشدة والأزمات ومع شعورنا بالنقص والخوف والخطر .. فهل فى هذه الفضائل ما يربطها بوظيفة المقاومة والنجاة ؟! وهل لكى يصير الناس فضلاء وعقلاء ـ يجب أن يعودوا فقراء ؟! ولماذا يصاحب الغنى والمترفين فى الرخاء ـ لماذا يصاحبهم عادة نقص فى الإخلاص وضبط النفس ؟! ولماذا لا نشعر بالاحتياج إلى الله إلا فى أوقات الشدة، فإذا شملنا الرخاء لم نعد نحس بالاحتياج إلى الله فننساه سبحانه مثلما ننسى الناس ! ولا يفوت أن مصلحتنا الشخصية هى المحرك لنا فى الموقفين .. أقبلنا عليه سبحانه واتجها إليه أم أدبرنا !!

ومن الوهم الصرف، شعورنا فى بعض الأوقات بالأمن المطلق .. وهذا الوهم يتسبب دون أن ندرى فى هبوط الطاقة الروحية لدينا .. تماما كما يتسبب فى هبوطها شعورنا باليأس أو بفقدان الأمل .. ففى الحالين نشعر أننا وحدنا فى الوجود . لا نرى إلا أنفسنا، إما أغنياء مستغنين تارة، أو أغنياء مستغنين عن أى نصير !!

إن أهم ما فى الدين ـ وهو الإيمان بالله ـ ليس قاعدة ولا فكرة، وليس موضوعا نظريا للتعلم النظرى وتبادل التعليم والفهم بين المعلم والمتعلم ! فالإيمان إحساس داخلى عميق وانكشاف واكتشاف ووعى لشىء مجهول مع بقائه مجهول الكنه، وتمسك بشىء غير قابل للتصور .. مع أنه قابل لأقصى درجات التصديق ..

" كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ " (عبس / ١١)، " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ" (القمر ٤٠)، " ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ "(الزمر ٢٣) " وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ "(الرعد ١٣) " تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا " (السجدة ١٦) ..

وغيرها من الآيات الكريمة التى ـ رغم اختلاف الألفاظ ـ توقظ العقل والضمير وتتداعى بالتشابه والتذكر .

نعم . الإيمان ثقة وليس علما أو معرفة مما يعلمه العقل أو يتعلمه .. إنه شيء خلف العقل وخلف الإرادة يقويهما فى اتجاه معين . والإيمان لا يجعل المستقبل حاضرا، ولا يوقع صاحبه فى حالة عيبوبة ينسى فيها دوافعه وتوالى أحداثه المؤلمة وغير المؤلمة . وهو لا يحول الحياة إلى تمثيلية معروفة الخاتمة أو النتيجة مقدما .. ومع أنه لا يضمن سلامة البدن وراحة البال ولا عدم انشغال القلب ـ لكنه يضمن سلامة الإرادة والتصميم والوثوق الهائل فى صحة الاتجاه .

الإيمان الذى يومئ إليه محمد عبد الله محمد ـ هو أن يمنح الإنسان ثقته كاملة .. بلا شرط ولا تحفظ . وهذا يستوجب أن نكون قادرين على الإعجاب الشديد والاحترام الشديد والحب الشديد .. قادرين على أن نملأ بكل ذلك أفقا .

والمهم فى العقيدة ـ هو جدها فى نظر أهلها، واعتناقهم إياها فعلا لا كلاما فقط، واختلاطها بحياتهم وسلوكهم الجاد وتغلغلها فى عاداتهم النافعة .. وشاهد صحة العقيدة هو حياتها وحياة

أصحابها .. فإن ضمرت أو فترت انصرف أهلها عنها مهما حاول رؤساء العقيدة الدفاع عنها أو تشديد قبضتها على أفكار أتباعها .

وعلاقتنا بالله عز وجل، وما أنزل إلينا، هدي إلهي - توقيفي .. مجيئه من الله تعالى غيب لا نعرف منه إلا ما عَرّفنا هو ورسوله به .. والمقصود الأول والأخير للأوامر والنواهي والإشارات والتنبيهات هو خدمة الهدى الإلهي وبلاغه إلى غايته .

والمشكلة بالنسبة لأغلبنا هي في نقص الالتفات .. فالشاغل الذي يشغلنا عن الله دون أن نشعر - هو شيء يبعد التفاتنا إليه عز وجل .. فنحس ونتصور ونعزم ونعمل ونتعامل بعيداً عن التفاتنا لوجود الله تعالى وحضوره، ونتوهم دون أن نقر لأنفسنا - أننا نستطيع ألا نفكر فيه ونستطيع أن نعالج أمورنا دونه جل وعلا .. وأمثال هؤلاء - وهم كثر في هذا الزمن - يعيشون معظم أوقاتهم خارج الالتفات إلى الله عروجل .

و الالتفات إلى الله عز وجل - لا يلغي القوانين الاجتماعية والطبيعية ولا يتجاهلها، وعلى العكس فإن الالتفات إلى هذه القوانين في ذاتها لا يغني عن الالتفات إلى الله تبارك وتعالى .. و الالتفات إلى القوانين وحدها دون الاتجاه إلى الله - يحبس أرواحنا التي لا تستغني عن المطلق ومحاولة الاتصال به .